

اليسير في التفسير - الجزء 21-

1.0-497

46- ولا تجادلوا -أيها المؤمنون- غيركم من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى إلا بالطريقة التي هي أحسن، بأن ترشدوهم إلى طريق الحق بالقول الجميل والأسلوب اللين، إلا الذين ظلموا منهم بأن أساءوا إليكم واعتدوا عليكم وطعنوا في دينكم، فقابلوهم بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب وبما يردع عداوتهم، وقولوا لهم: آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا، وآمنا بالتوراة والإنجيل اللذين أنزلا إليكم، وإلهنا وإلهكم الله، وهو واحد لم يتخذ ولدًا ولا شريكًا، متفرد في ألوهيته وربوبيته، وفي أسمائه وصفاته، ونحن منقادون بالطاعة لأوامره ونواهيهِ.

47- وكما أنزلنا -أيها الرسول- الكتب على مَنْ قبلك من الرسل، أنزلنا عليك القرآن المصدق للكتب السابقة؛ ليكون هداية للناس، وبعض الذين آتيناهم الكتاب من بني إسرائيل وعقلوه، وفتحوا قلوبهم للحق يؤمنون بهذا القرآن، ومن هؤلاء العرب الذين أرسلت إليهم مَنْ يؤمن بهذا القرآن الذي أنزلناه إليك، ولا يكفر بالقرآن أو يشكك في دلائله وبراهينه البينة الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، وعلى صدقك فيما تبليغه عنا، إلا الكافرون الذين دأبهم الجحود والعناد للحق مع ظهوره.

48- ومن معجزاتك الواضحة -أيها الرسول- أنك لم تكن في يوم من الأيام تقرأ كتابًا قبل نزول القرآن عليك، ولم تكتب حروفًا بيمينك من قبل، لأنك أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب، وهم يعرفون ذلك، ولو كنت قارئًا أو كاتبًا من قبل أن يوحى إليك لشك الجهلة من الناس في نبوتك، وقالوا: تعلّمه من كتب السابقين.

49- هذا الكتاب ليس أساطير الأولين اكتبها الرسول ﷺ كما زعم المبطلون، بل هذا القرآن المنزل عليك آيات واضحات في الدلالة على الحق، يحفظه العلماء من المؤمنين به ويتدبرونه، ويعملون بتوجيهاته وإرشاداته، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون لأنفسهم بالكفر والشرك بالله، المعاندون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه.

50- وقال المشركون للنبي ﷺ على سبيل العناد: هلا أنزل على محمد معجزات من ربه نشاهدها كالتي جاء بها بعض الأنبياء من قبله كناقاة صالح، وعصا موسى؛ لكي نؤمن به ونتبعه، قل لهم -أيها الرسول-: إن أمر هذه الآيات التي تريدونها بيد الله إن شاء أنزلها وإن شاء منعها حسب إرادته وحكمته، وليس إليّ أمر إنزالها، وإنما أنا نذير لكم أحذركم عقاب الله، وأبين لكم الطريق الحق.

51- أولم يكف دليلاً على صدقك -أيها الرسول- عند هؤلاء المشركين المقترحين لنزول الآيات أننا أنزلنا عليك القرآن يُتلى على مسامعهم صباح مساء، ويهديهم إلى ما فيه سعادتهم؛ لو تدبروه وآمنوا به، واتبعوا أوامره ونواهيه، إن في هذا القرآن المنزل عليك رحمةً للمؤمنين في الدنيا والآخرة، وذكرى نافعة يتذكرون بما فيه من العبر والعظات.

52- قل -أيها الرسول- لهؤلاء الجاهلين: كفى بالله بيني وبينكم شاهداً على صدقي فيما جنتكم به من عند ربي، وعلى تكذيبكم به، يعلم ما في السماوات والأرض لا يخفى عليه شيء فيهما، وسيجازيني بما أستحقه من ثواب، وسيجازيكم بما تستحقونه من عقاب، والذين صدقوا بالشرك وعبادة الأوثان،

وأعرضوا عن الحق الذي جئت به ودعوتهم إليه، وكَفَرُوا بِاللَّهِ
مع وضوح الأدلة على أنه هو المستحق للعبادة والطاعة، الذين
فعلوا ذلك: أولئك هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

53- ويستعجلك -أيها الرسول- هؤلاء المشركون من قومك
بالعذاب الذي أنذرتهم إياه استهزاء بك، وعلى سبيل التحدي
لك، ولولا أن الله قَدَّرَ لنزول العذاب بهم في الدنيا وقتًا معينًا لا
يتقدم ولا يتأخر لجاءهم العذاب في الوقت الذي طلبوه بدون
تأخير لأنهم استحقوا ذلك، وليأتينهم فجأة بدون مقدمات، وهم
لا يتوقعونه.

54- يستعجل الكافرون بالعذاب الذي وعدتهم إياه في الدنيا،
وهو آتيهم لا محالة إما في الدنيا وإما في الآخرة، وإن عذاب
جهنم في الآخرة لمحيط بهم من كل جانب، لا يستطيعون الفرار
منه.

55- يوم يحيط بهم العذاب يوم القيامة في جهنم من جميع
جهاتهم من فوق رؤوسهم، ومن تحت أرجلهم، ويقول الله
توبيخًا لهم حينئذ: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من
الشرك بالله، وتكذيب المرسلين، وبسبب أعمالكم القبيحة،
وأقوالكم الباطلة.

56- يا عبادي الذين آمنوا بي وصدقوا رسولي إن كنتم لا
تستطيعون عبادتي وإظهار دينكم في أرضكم التي تعيشون
فيها، فهاجروا من هذه الأرض إلى حيث تستطيعون عبادة
ربكم؛ فأماكن العبادة ومواضعها في أرضي واسعة والمعبود
واحد، فأخلصوا العبادة لي وحدي ولا تشركوا بي أحدًا.

57- ولا يمنعكم من ترك أوطانكم خوف الموت فإن كل نفس حية ذائقة لمرارة الموت، ثم إلينا بعد ذلك ترجعون للحساب والجزاء على أعمالكم التي عملتموها في دنياكم.

58- والذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات لنُسَكِنَنَّهُمْ من الجنة غرفاً عالية، هذه الغرف من صفاتها أنها تجري من تحتها الأنهار، زيادة في إكرام أصحابها، فضلاً عن ذلك فقد جعلناهم خالدين فيها لا يخرجون منها أبداً، ونعم جزاء العاملين هذه الغرف في جنات النعيم أجراً لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فليعمل العاملون لأجلها.

59- إن تلك الجنات جزاء للمؤمنين الذين تمسكوا بدينهم، وصبروا على عبادة ربهم فأدوها، وصبروا عن المعصية فاجتنبوها، وكانوا على الله متوكلين يفوضون أمورهم إليه في جميع أحوالهم.

60- ولا عذر لكم في ترك الهجرة خوفاً من الجوع؛ فالله هو الرزاق قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم، قوهم وعاجزهم، فكم من دابة لا تدخر غذاءها لغد كما يفعل ابن آدم، والله برحمته وفضله يرزقها كما يرزقكم، وهو السميع لأقوالكم، العليم بأفعالكم وخطرات قلوبكم، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

61- ولئن سألت -أيها الرسول- هؤلاء المشركين: من الذي أوجد السماوات والأرض من العدم على غير مثال سابق، ومن الذي ذلل لمنفعتكم الشمس والقمر وهما يتعاقبان لأجلكم؟ ليقولنَّ: خلقهنَّ الله وحده بقدرته، فإذا كنتم معترفين بأن الله وحده هو الخالق للسماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، فلماذا

أشركتم معه في العبادة آلهة أخرى؟ وكيف تتصرفون عن الإيمان بالله وحده وتعبدون من دونه آلهة لا تنفع ولا تضر؟

62- الله سبحانه وتعالى يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيقه على آخرين منهم لعلهم بما يصلح عباده وما فيه فسادهم، إن الله بكل شيء من أحوالكم وأموركم عليم، فيعلم من يستحق أن يبسط له في رزقه، ومن يستحق التضيق عليه في رزقه.

63- ولئن سألت -أيها الرسول- هؤلاء المشركين: مَن الذي نَزَّلَ من السماء ماء فأنبت به الزرع من الأرض بعد أن كانت جرداء ميتة؟ ليقولنَّ: الله وحده هو الذي نَزَّلَ المطر من السماء وأنبت به النبات من الأرض، قل: الحمد لله الذي أظهر حجتك عليهم وجعلهم ينطقون بأنك على الحق المبين، ويعترفون بأن إشراكهم إنما هو من باب العناد والجحود، بل الحاصل أن أكثرهم لا يعقلون شيئاً مما يجب أن يكون عليه العقلاء من فهم سليم للأمر، ولو عَقَلُوا ما أشركوا مع الله أصناماً لا تضر ولا تنفع.

64- وما هذه الحياة الدنيا بكل ما فيها من المُنْعِ واللذات والشهوات إلا لهو تلهو بها القلوب المتعلقة بها، ولعب تلعب بها الأبدان ثم تنتهي سريعاً، وإن الدار الآخرة لهي الحياة الحقيقية الدائمة التي لا موت فيها، لو كان الناس يعلمون ذلك حق العلم لما آثروا متع الدنيا الفانية على خيرات الآخرة الباقية.

65- من صفات هؤلاء الجاحدين، أنهم إذا ركبوا السفن في البحر وخافوا الغرق، دعوا الله وحده حال شدتهم مخلصين له الدعاء، فلما زالت عنهم الشدة التي كانوا فيها، وأنقذهم من

الغرق المحقق إلى البر، عادوا إلى شركهم فيدعون مع الله آلهتهم المزعومة، إنهم بهذا يتناقضون: يُوجدون الله ساعة الشدة، ويُشركون به ساعة الرخاء، فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء والشدة، واليسر والعسر؛ ليكونوا مؤمنين به حقًا، مستحقين ثوابه.

66- وقد انقلبوا مشركين ليكفروا بما آتَيْنَاهُمْ من نعم، ومن نِعْمه إنجاؤهم من الغرق، وليتمتعوا بمتع هذه الحياة وزينتها، فسوف يعلمون فساد عملهم وعاقبتهم السيئة عندما يموتون، ويوم القيامة عندما يعذبون.

67- أولم يرَ أهل مكة الجاحدون لنعمة الله عليهم حين نجاههم من الغرق، نعمة أخرى وهي: أن الله جعل لهم مكة حَرَمًا آمِنًا؛ يأمن فيه أهله على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، والناس من حولهم خارج الحرم تُشَنُّ عليهم الغارات؛ فَيَقْتُلُونَ وَتُنْهَبُ أموالهم وتُسبى نساؤهم وذرايرهم، وهم في مساكنهم غير آمنين؟ أفيالباطل من الأوثان يؤمنون، وبنعمة الله التي خصَّهم بها يجحدون فلا يشكرون، فيعبُدونه وحده دون سواه؟! فأين ذهبت عقولهم، حيث أثروا الباطل على الحق، والشقاء على السعادة؟!!

68- لا أحد أشدَّ ظلمًا ممن كَذَبَ على الله، فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله بأن زعم بأن الله شريكًا، أو كَذَّبَ بالحق الذي جاء به رسوله بأن أعرض عنه، وأبى أن يستمع إليه، فلا شك أن جهنم أعدت لتكون مسكنًا دائمًا لهؤلاء وأشباههم من الكافرين، وبئس المكان الذي يستقرون فيه.

69- والمؤمنون الذين جاهدوا أنفسهم، وأعداء الله لإعلاء ديننا، وصبروا على الفتن والأذى في سبيل رضائنا، وأخلصوا

لنا العبادة والطاعة، فإننا لن نتخلى عنهم، بل سنهديهم إلى الطريق المستقيم ونثبتهم عليه، ونجعل العاقبة الطيبة لهم، ومن هذه صفته فهو محسن إلى نفسه وإلى غيره، وإن الله سبحانه وتعالى مع المحسنين بالحفظ والهداية والنصرة والعون، وتلك سنتنا التي لا تتبدل ولا تتخلف.

سورة الروم

1- (الْم) الحروف المقطعة لا يعرف معناها إلا الله، نزلت لتحدي العرب أهل الفصاحة.

2- غُلبت الروم النصارى وهم أهل كتاب؛ من فارس المجوس عباد النار، وفرح كفار مكة بذلك، وقالوا للمسلمين: نحن نغلبكم كما غلبت فارس الروم.

3- في أدنى أرض الشام إلى بلاد فارس، وسوف يَغْلِب الرومُ الفرسَ في معركة قريبة من بعد هزيمة الفرس لهم.

4- في زمن لا يزيد على بضع سنين، من ثلاث إلى عشر سنين، لله سبحانه وتعالى الأمر كله من قبل انتصار الفرس على الروم، ومن بعد انتصار الروم على الفرس، وكلا الفريقين كان نصره أو هزيمته بإرادة الله ومشيئته، ويوم ينتصر الروم على الفرس يفرح المؤمنون؛ لأن الروم أهل كتاب والفرس أهل شرك يعبدون النار.

5- يفرحون بنصر الله للروم على الفرس، والله سبحانه وتعالى يَنْصر من يريد نصره، ويهزم من يريد هزيمته، وهو العزيز الذي لا يُغَالَب، الرحيم بعباده المؤمنين. وقد تحقق وعد الله فغَلَبَت الرومُ الفرسَ بعد سبع سنين، وفرح المسلمون بذلك،

وقد أبطل سبحانه وتعالى بهذا النصر شماتة المشركين في المسلمين، وازداد المؤمنون ثباتاً على ثباتهم.

6- هذا النصر كان وعداً من الله للمؤمنين بالنصر وبالفرح وعداً مؤكداً، ووعدُ الله لا يتخلف، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ما وعد الله به عباده حق؛ لاستيلاء الجهل على عقولهم، ولاستحواذ الشيطان عليهم.

7- هؤلاء الأكثرون من الناس، من أسباب جهلهم بسنن الله في خلقه، أنهم يعلمون ظواهر الحياة الدنيا ومتعها وشهواتها، ووسائل المعيشة فيها، فيعلمون كيف يتجرون ويزرعون ويبنون ويصنعون، وهم عن الآخرة والعمل لها بما ينفعهم فيها غافلون؛ لأنهم آثروا الدار العاجلة، على الدار الباقية.

8- أبلغ الجهل بهؤلاء المكذبين لرسَل الله أنهم اكتفوا بالأنهماك في متع الحياة الدنيا، ولم يتفكروا في أطوار خلق أنفسهم، لأنهم لو تفكروا لعلموا وأيقنوا أن في أنفسهم آيات يعرفون بها أن الذي أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك للحساب والجزاء في الآخرة، وأن الله ما خلق السموات والأرض وما بينهما من الخلائق المتنوعة، والأجناس المختلفة إلا بالحق، فما خلقت عبثاً ولا باطلاً، وقد قدر لهذه المخلوقات جميعها أجلاً معيناً تنتهي عنده، وهو يوم القيامة، وإن كثيراً من الناس لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وما فيه من حساب وثواب وعقاب، لذلك فهم لا يستعدون له بالإيمان والعمل الصالح.

9- أولم يسِرْ هؤلاء المكذبون بالله الغافلون عن الآخرة في الأرض سير المتأملين المتفكرين المعتبرين؛ ليتأملوا كيف كانت نهاية الأمم الماضية من قبلهم كقوم عاد وثمود وقوم لوط،

الذين كَذَّبُوا برسل الله؟ كان أولئك السابقون أقوى من أهل مكة في كل مجال من مجالات القوة، فكانوا أقوى منهم أجسامًا، وأقدر على التمتع بالحياة حيث حرثوا الأرض وزرعوها، وَبَنَوْا القصور وسكنوها، وقد عَمَرُوا دُنْيَاهُمْ أَكْثَرَ مما عَمَرَ أهل مكة لها، فلم تنفعهم عمارتهم ولا طول مُدَّتِهِمْ، وجاءتهم رسلهم بالبراهين الساطعات والحجج الواضحات على توحيد الله فكذَّبُوهم فأهلكهم الله، فما ظلمهم ربهم حين أهلكهم، وإنما ظلموا أنفسهم بإيرادها موارد الهلاك؛ بسبب كُفْرِهِمْ وعِصْيَانِهِمْ مما كان سببًا في هلاكهم.

10- ثم كانت نهاية أهل السوء من الطغاة والكفرة والعصاة في الآخرة أسوأ العواقب وأقبحها وهو العذاب في جهنم؛ لأنهم كَذَّبُوا في الدنيا بآيات الله المنزلة على رُسُلِهِ الدالة على وحدانيته، وسخروا منها، فاحذروا أن يكون الهلاك عاقبة تكذيبكم.

11- الله وحده هو المتفرد بإنشاء المخلوقات كلها على غير مثال سابق، وهو القادر وحده على إعادتها إلى الحياة مرة أخرى يوم القيامة، ثم إليه وَحْدَهُ يَرْجِعُ جميع الخلق للحساب والجزاء، فيجازي كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

12- ويوم تقوم الساعة ويشاهد المجرمون أهوالها يبأس المجرمون من رحمة الله والنجاة من عذابه، وَثُصِّبِهِم الْحَيْرَةُ فتقطع حجتهم؛ بسبب كُفْرِهِمْ وعِصْيَانِهِمْ لربهم في دنياهم.

13- ولم يكن للمشركين في ذلك اليوم من آلهتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا من دون الله شفعاء يشفعون لهم لإنقاذهم من العذاب، بل إنها في هذا اليوم الشديد تتبرأ منهم ويتبرؤون منها،

فقد خَذَلْتهم آلهتهم حين احتاجوا إليها؛ لأنهم تظهر لهم الحقائق، ويعرفون أن هؤلاء الشركاء لا يرجى منهم نفع، ولا يخشى منهم ضرر.

14- ويوم القيامة يتفرق الناس؛ فيفترق أهل الإيمان بالله وأهل الكفر في الجزاء، كلُّ على حسب عمله في الدنيا.

15- فأما المؤمنون بالله ورسوله الذين عملوا الأعمال الصالحة في دنياهم؛ فهم في الجنة يُكْرَمُونَ، ويُسْرُونَ بدخولها سرورًا عظيمًا، بما ينالون فيها من النعيم المقيم الذي لا يَنْتَهِي.

16- وأما الذين كفروا بربهم وكذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق أنبيائنا، وأنكروا البعث بعد الموت للحساب والجزاء على أعمالهم؛ فأولئك الذين أُحْضِرُوا للعذاب فهم ملازمون له لا يستطيعون الهروب منه جزاء ما كَذَّبُوا به في الدنيا.

17- إذا علمتم ما أخبرتكم به قبل ذلك، فيا أهل الإيمان سَبِّحُوا الله ونَزِّهوه عن الشريك والصاحبة والولد، وَسَبِّحُوهُ وَأَثْنُوا عليه بصفات الكمال بالسنتكم، وحقِّقُوا ذلك بجوارحكم كلها حين تدخلون في وقت المساء وهو وقت صلاتي: المغرب والعشاء، وَسَبِّحُوهُ كذلك في وقت الصباح وهو وقت صلاة الصبح.

18- وله وحده سبحانه الحمد والثناء في السماوات، تحمده الملائكة، وتسبح بحمده بالليل والنهار لا يفترون، وفي الأرض يحمده خلائقه، فسبحوه في الليل والنهار وحين تدخلون في العشي وهو: وقت صلاة العصر، وحين تدخلون في وقت الظهيرة وهو وقت صلاة الظهر، فإنه سبحانه وتعالى هو

المستحق للحمد والثناء من أهل السماوات ومن أهل الأرض،
ومن جميع المخلوقات.

19- يُخرج الله الحي من الميت كالإنسان من النطفة والطير
من البيضة والسنبلة من الحبة والشجرة من النواة، ويُخرج
الميت من الحي كالنطفة من الإنسان والبيضة من الطير والحبة
من السنبلة والنواة من الشجرة، ويحيي الأرض بالنبات بعد
جفافها بإنزال المطر وإنباتها، ومثل إحياء الأرض بإنباتها
تُخرجون -أيها الناس- من قبوركم للحساب والجزاء على
أعمالكم التي عملتموها في الدنيا.

20- ومن آيات الله الدالة على عظمته ووحدانيته وكمال
قدرته التي لا يعجزها شيء: أن خلق أباكم آدم عليه السلام من
تراب وأنتم فروع عنه، ثم أنتم بشر تتناسلون فتنتشرون في
مشارك الأرض ومغاربها، تبتغون من فضل الله عن طريق
الزراعة والصناعة والتجارة، كل ذلك طلباً للرزق، ولجمع
الأموال.

21- ومن آياته الدالة على عظمته ورحمته بكم: أن خلق
لأجلكم -أيها الرجال- أزواجاً من جنسكم لتطمئن نفوسكم إليها
وتسكن، وجعل بين المرأة وزوجها محبة ورأفة، إن في ذلك
الذي ذكرناه لكم لبراهين ودلالات واضحة على قدرة الله
ووحدانيته، تهدي إلى الرشd وإلى الاعتبار، لقوم يتفكرون
ويتدبرون؛ لأنهم الذين يستفيدون من أعمال عقولهم.

22- ومن دلائل قدرة الله التامة على كل شيء ووحدانيته:
خَلَقَ السماوات وارتقاها فوق الأرض بغير عمد، وَخَلَقَ
الأرض مع اتساعها وامتدادها، واختلاف لغاتكم من عربية

وعجمية وغيرها، وتباين ألوانكم فهذا أبيض، وهذا أسود، مع أن الجميع من أب واحد وأم واحدة، إن في ذلك الذي وضحنه لكم لبراهين ودلالات لأهل العلم والبصيرة من الناس على قدرة الله عز وجل.

23- ومن آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته ووحدانيته: أن جعل الله النوم راحة لأبدانكم وأذهانكم في الليل أو النهار، إذ في النوم حصول الراحة وذهاب التعب، وجعل لكم النهار لتنتشروا فيه مبتغين طلب الرزق من ربكم، إن في ذلك كله لبراهين ودلالات على كمال قدرة الله لقوم يسمعون المواعظ سماع تدبر وقبول وانتفاع بما يسمعون.

24- ومن آياته الدالة على عظمته ورحمته بكم: أنه يُريكم البرق في السماء فتخافون من الصواعق والأمطار المزعجة، وترجون من ورائه المطر النافع، والغيث المدرار، ويُنزل من السحاب ماء المطر فيحيي به الأرض بعد جَدْبها وَجَفَافها بما ينبت فيها من نبات، إن في ذلك لبراهين ودلالات واضحة على كمال قدرة الله وعظيم حكمته وإحسانه لكل مَنْ لديه عقل يعقل به ما يسمعه في الخير لا في الشر، وفي الحق لا في الباطل، فيستدل به على البعث بعد الموت للحساب والجزاء.

25- ومن آياته العظيمة الدالة على عظمته وكمال قدرته ووحدانيته: خلقه للسموات والأرض، وإبقاؤه لهما على هذه الصورة البديعة، وثباتهما على تلك الهيئة العجيبة، فلم تسقط السماء على الأرض، وذلك كله بأمره ومشينته، وبقدرته العظيمة التي بها أمسك السموات والأرض أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض بنفخ الملك في الصور للبعث إذا هم يخرجون

من القبور مسرعين للحساب والجزاء على أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

26- والله وحده كل مَنْ في السماوات وكل من في الأرض من الملائكة والإنس والجن والحيوان والنبات والجماد خلقًا وملكاً وتصرفًا، كل هؤلاء منقادون مستسلمون لأمره خاضعون له.

27- والله وحده الذي يَبْدَأُ الخلق من العدم على غير مثال سابق، ثم يُعيدُه بعد إِفْنائِه إلى الحياة مرة أخرى، في الوقت الذي يريده، وإعادة الخلق بعد الموت أيسر على الله من ابتداء الخلق، وكلاهما سهل عليه؛ لأنه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، وله سبحانه وتعالى الوصف الأعلى في كل ما يوصف به من صفات الجلال والكمال، الذي ليس لغيره مثله، وهو العزيز الذي لا يُعَالَبُ، الحكيم في أقواله وأفعاله وتدبير أمور خلقه.

28- ضرب الله لكم مثلًا -أيها المشركون- مأخوذ من أنفسكم التي هي أقرب شيء إليكم: هل لكم من عبيدكم وإمائكم مَنْ يشارككم في أموالكم التي رزقناكم إياها، وترون أنكم وإياهم متساوون فيها؟ وتخافون أن يفتسموا أموالكم معكم كما يخاف بعضكم من شريكه الحر في جواز التصرف في تلك الأموال، فإذا كان هذا شأنكم مع عبيدكم فكيف ترضون لأنفسكم أن تجعلوا لله شريكًا في العبادة من خلقه وعبيده مع أنه هو الخالق لكم ولهم، والرازق لكم ولهم؟! وبمثل هذا البيان من ضرب الأمثال نُبِّئُ البراهين والحجج الدالة على وحدانيتنا، لأصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بها في إخلاص العبادة لله b.

29- ليس السبب في ضلال المشركين قصورًا في الأدلة ولا عَدَم بيان لها، وإنما السبب جهالاتهم وأنهم اتبعوا أهواءهم بتقليد آبائهم بغير علم، فشاركوهم في الجهل والضلالة، إذا كان هذا هو حالهم، فمن الذي يقدر أن يوفق للهداية مَنْ أَضَلَّه الله بسبب تماديه في الكفر والعناد واستحابه العمى على الهدى، إنه لا أحد يستطيع ذلك، وليس لهؤلاء مِنْ ناصرين يدفعون عنهم عذاب الله إذا نزل بهم.

30- إذا كان الأمر كما ذكرت لك -أيها الرسول- من بطلان الشرك، فاثبت أنت ومن اتبعك على الدين الحق الذي أوحاه الله إليك ووجهك إليه، مائلاً عن جميع الأديان الباطلة، والزموا -أيها الناس- دين الإسلام، وقبول تعاليمه والعمل بها؛ لأنه الدين الذي فطر الله الناس عليه وارتضاه لهم، لا تبديل لما فطركم الله عليه وارتضاه لكم، ذلك الدين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف الذي ارتضاه لكم ربكم، وهو الطريق الموصل إلى رضاه وجنته، ولكنْ أكثر الناس لا يعلمون أن هذا هو الدين الحق دون سواه من الأديان.

31- وارجعوا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم وإخلاص العمل له، واتقوه بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وأقيموا الصلاة في أوقاتها بخشوع واطمئنان على أكمل وجه، ولا تكونوا من المشركين المتبعين لأهوائهم وشهواتهم، الذين يُناقضون الفطرة، فيشركون مع الله غيره في عبادتهم.

32- ولا تكونوا من المشركين وأهل الأهواء والبدع الذين بَدَّلُوا دينهم فغيروه، وآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، أو تركوا العمل به اتباعاً لأهوائهم، وكانوا فِرَقاً وأحزاباً متنازعة يعين

بعضهم بعضًا على الباطل، كل حزب منهم صار مسرورًا بما هم عليه من الباطل، وهذا الفرع بالباطل سببه جهلهم.

33- وإذا أصاب المشركين شدة من مرض أو قحط أو مصيبة في المال أو الولد؛ أسرعوا بالدعاء لربهم دون غيره مخلصين له متضرعين إليه أن يكشف عنهم الضر الذي أصابهم، فإذا رحمهم وكشف عنهم ما أصابهم من ضر؛ إذا فريق منهم يرجعون للشرك مرة أخرى، فيعبدون مع الله غيره ويدعونه من دونه.

34- ليكفروا بما أعطيناكم من نعمنا، ومنها: نعمة كشف الضر وزوال الشدة عنهم، فتمتعوا -أيها المشركون- بالرخاء والسعة في هذه الدنيا، فسوف ترون يوم القيامة ما تلقونه من العذاب الشديد في النار على كفركم وعبادتكم غير ربكم.

35- ما الذي دعاهم إلى الشرك بالله وما حجتهم في فعل ذلك؟! فما أنزلنا على هؤلاء المشركين حجة ظاهرة وكتابًا قاطعًا ينطق بصحة كفرهم بالله وآياته ويأمرهم بذلك.

36- وإذا أدقنا الناس منّا نعمة من صحة وعافية وغنى ونصر؛ فرحوا بذلك فرح بطرٍ وتكبروا لا فرح شكر، فلم يقابلوا نعم الله بشكرها، ولم يستعملوها فيما خلقت له، وإن يصيبهم ما يسوؤهم من مرض وفقر وخوف وضيق؛ بسبب ما اكتسبته أيديهم من الذنوب والمعاصي؛ إذا هم ييأسون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه، واسودت الدنيا في وجوههم، وهذا طبيعة أكثر الناس في الرخاء والشدة.

37- أجهل هؤلاء الناس الذين لم يخالط الإيمان قلوبهم، ولم يشاهدوا بأعينهم أن الله بمقتضى حكمته يوسع الرزق لمن يشاء

من عباده امتحانًا له أيشكر أم يكفر؟ ويضيِّقه على من يشاء منهم اختبارًا له أيصبر أم يسخط؟ إن في ذلك الذي ذكرناه لكم من بسط الرزق لبعض الناس والتضييق على بعض لدلالات على حكمة الله ورحمته لقوم يؤمنون بما أرشدناهم إليه، ويعملون بما يقتضيه إيمانهم.

38- فَأَعْطِ -أيها المسلم- قَرِيْبَكَ حَقَّهُ الذي أوجبه ربك عليك، أو رَغَبْ فيه من النفقة الواجبة والصدقة والإكرام والعفو والمسامحة والصلة وسائر أعمال البر والخير، وَأَعْطِ الفقير الذي لا يملك ما يسد به حاجته، وَأَعْطِ الغريب المحتاج الذي انقطعت به السُّبُل ما يكون سببًا في دفع حاجته، ذلك الإِطاء في تلك الوجوه خير للذين يريدون بعملهم وجه الله، والذين يعملون هذه الأعمال وغيرها من أعمال الخير هم الفائزون بالجنة ونعيمها الدائم، الناجون من عذاب الله.

39- وما دَفَعْتُمْ من أموال إلى أحد من الناس بقصد أن يرُدَّها إليكم بزيادة، فلا يزيد أجره عند الله بل يمحقه ويبيطله ولا يبارك فيه، وما أَعْطَيْتُمْ من أموالكم من زكاة وصدقة للمستحقين تريدون بذلك مرضاة الله وحده وتطلبون ثوابه، فهذا هو الذي يَقْبَلُهُ الله، ويظهركم به من الأخلاق الرذيلة، وَيُضَاعِفْه لكم أضعافًا كثيرة.

40- الله وحده هو الذي خلقكم -أيها الناس- على غير مثال سابق، ثم رزقكم في هذه الحياة بأنواع من الرزق الذي لا غنى لكم عنه في معاشكم، ثم يميتكم بانقضاء آجالكم في هذه الحياة، ثم يبعثكم أحياء من قبوركم للحساب والجزاء على أعمالكم، هل من أصنامكم التي تعبدونها من دون الله مَنْ يستطيع أن يفعل

شيئاً من ذلك، فكيف اتخذتموهم آلهة وأشركتموهم في العبادة مع ربكم؟ تنزّه الله وتقدّس عما يقوله ويعتقده المشركون وعن جهل أولئك الجاهلين.

41- ظهر الفساد في البر والبحر في معاش الناس بنقصها كالجدب وقلة الأمطار ونقص البركة في الزروع والثمار والمطاعم والمشارب، وفي أنفسهم بحدوث الأمراض والأوبئة، وذلك بسبب المعاصي التي يفتترها البشر من الشرك والظلم، والقتل وسفك الدماء، والأحقاد والعدوان، ظهر ذلك ليزوقوا عقوبة بعض أعمالهم السيئة التي عملوها في الحياة الدنيا؛ رجاء أن يتركوا المعاصي ويتوبوا إلى ربهم توبة نصوحاً، فتصلح أحوالهم، وتستقيم أمورهم.

42- قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين المكذبين لك: سيروا في الأرض سيرَ المتأملين المعبرين فتأملوا لتروا بأعينكم كيف كانت نهاية الأمم المكذبة من قبلكم كقوم نوح وعاد وthumb، تَجِدُوا عاقبتهم شر العواقب من الدمار والهلاك؟ فقد كان أكثرهم مشركين بالله يعبدون ويدعون معه غيره، فأهلكهم الله بسبب إصرار أكثرهم على الشرك والكفر، وانغماسهم في الفواحش والمعاصي.

43- إذا كان الأمر كما ذكرت لك -أيها الرسول- من سوء عاقبة الأشرار، وحسن عاقبة الأخيار فأقبل بقلبك وتوجه بوجهك واسع ببذنبك نحو دين الإسلام المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، مُنْقِذاً أوامره مُجْتَنِباً نواهيه، واثبت أنت ومن تبعك من المؤمنين على هذا الدين القيم الذي أوحيناه إليك من قبل مجيء يوم القيامة، ذلك اليوم إذا جاء لا يقدر أحد على رده، في ذلك

اليوم يَتَفَرَّقُ فِيهِ النَّاسُ إِلَى فَرِيقَيْنِ لِيُروا أَعْمَالَهُمْ وَيُجَازُوا عَلَيْهَا، فَمِنْهُمْ الْمُتَنَعِّمُ فِي الْجَنَّةِ وَمِنْهُمْ الْمُعَذَّبُ فِي النَّارِ.

44- من كفر بالله فضرر كفره عائد عليه لا على غيره، وسيتحمل وحده ما يترتب على ذلك من عذاب مهين في نار جهنم، ومن آمن وعمل عملاً صالحاً يبتغي به وجه الله فإنما يُهَيِّئُونَ لأنفسهم مكاناً مريحاً يستقرون فيه في الآخرة، وهو دخول منازل الجنة والتنعيم فيها.

45- ليجزي الله الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات الجزاء الحسن الذي يستحقونه، وليعطيهم العطاء الجزيل من فضله وإحسانه؛ لأنه يحبهم، إنه لا يحب الكافرين به وبرسوله ولا يرضى عنهم، بل يغضب عليهم، وسيعذبهم يوم القيامة.

46- ومن آيات الله الدالة على عظيم قدرته ووحدانيته: أنه سبحانه وتعالى يرسل بأمره ومشيئته الرياح لتكون بشارة بأن من ورائها أمطاراً، فيها الخير الكثير للناس، فيستبشر العباد بقرب نزول المطر، وَلِيَذِيقَكُمْ -أيها الناس- من رحمته بما يَحْصُلُ من إنزال المطر حيث تسقى الزروع ويحصل الخصب والنماء وتحيا به البلاد والعباد، ولتجري السفن عند هبوبها في البحر بمشيئته، ولتطلبوا أرزاقكم من فضله بالتجارة في البحر عن طريق الأسفار، والانتقال من مكان إلى آخر، فَعَلَّ اللهُ ذَلِكَ من أجل أن تشكروا له نعمه فيزيدكم منها، وتقردوه وحده بالعبادة.

47- ولقد أرسلنا من قبلك -أيها الرسول- رُسُلًا كَثِيرِينَ إِلَى قَوْمِهِمْ حِينَ جَحَدُوا تَوْحِيدَ اللهِ وَكَذَّبُوا بِالْحَقِّ، فجاءتهم رسلهم بالحجج الواضحات والبراهين الساطعات الدالة على صدقهم،

ليهدوهم إلى الرشد، مبشرين الطائعين ومنذرين العاصين، يدعونهم إلى التوحيد والطاعة، ويحذرونهم من الشرك والمعاصي، فمن أقوامهم من آمن بهم، وأكثرهم كذبوا بما جاءتهم به رُسُلهم، فانتقمنا من الذين أجرموا بالكفر وفعل السيئات فأهلكناهم، وأنجينا الرسل وأتباعهم ونصرناهم على عدوهم، وكذلك نَفعل بالمكذِبين بك إن استمروا على تكذيبك ولم يؤمنوا، وكان إنجاء المؤمنين ونصرهم حقاً أوجبناه علينا فضلاً منا وإنصافاً لمن آمن بوحدايتنا، وأخلص العبادة لنا.

48- الله سبحانه وتعالى هو الذي يرسل الرياح ويسوقها بقدرته ومشيتته، فتثير تلك الرياح السحاب المثقل بالماء وتحركه، فينشره الله من مكان إلى آخر في السماء كيف يشاء، ويجعله قطعاً متفرقة، فتري -أيها الناظر- المطر يخرج من بين السحاب، فإذا ساقه الله إلى عباده فأصاب المطر من يشاء منهم بأن ينزله على أراضيهم وعلى بلادهم إذا هم يفرحون بإنزال المطر الذي به تحيا الأرض بالنبات ليكون طعاماً لهم ولدوابهم.

49- وقد كانوا من قبل نزول المطر عليهم الذي طال انتظارهم له وتطلعهم إليه لفي يأس؛ بسبب احتباسه عنهم وخوف القحط والمجاعة، وشدة حاجتهم إليه.

50- فانظر -أيها المشاهد- نظر تأمل واعتبار إلى الآثار المترتبة على نزول المطر في النبات والزروع والشجر، والذي ينزله الله رحمة بخلقه، كيف يحيي الله الأرض بما ينبتة عليها من أنواع النبات بعد جفافها وبيسها، إن ذلك الإله العظيم الذي قَدَر على إحياء هذه الأرض بعد موتها لقادر على إحياء الموتى، وهو على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

51- ولئن أرسلنا على زروعهم ونباتهم ريحاً معها الأتربة والرمال؛ فرأوا زروعهم ونباتهم قد فسد بتلك الريح، فصار لونه من بعد خضرته مصفراً، قد أصابه ما يضره أو يتلفه؛ لظلوا من بعد رؤيتهم له يكفرون بنعم الله السابقة على كثرتها، ويقابلون ما أرسلناه عليهم بالسخط، لا بالاستسلام لقضائنا، وملازمة طاعتنا.

52- فاصبر-أيها الرسول- لحكم ربك، واثبت على ما أنت عليه من حق، فهو لاء لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر، فإنك لا تقدر أن تسمع من مات قلبه، أو سدّ أذنه عن سماع الحق إذا ما دعوته أو وعظته، فلا تحزن على عدم إيمانهم بك وابتعادهم عنك، فإنهم كالموتى أو كالصم الذين لا يسمعون ولا يشعرون ولو كانوا حاضرين، فكَذلك لا تستطيع أن تهدي من أشبه هؤلاء بالإعراض وعدم الانتفاع.

53- وما أنت -أيها الرسول- بموفق مَن أعماه الله عن الطريق المستقيم إلى سلوك سبيل الرشاد، ما تُسمع سماع انتفاع إلا مَن يُؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا؛ لأنه هو الذي ينتفع بما تقوله، فهم المستجيبون لأمرنا المنقادون للحق المتبعون له.

54- الله بقدرته هو الذي خلقكم -أيها الناس- من ماء مهين وهو النطفة، ثم صرتم أطفالاً ضعافاً، ثم جعل من بعد ضعف طفولتكم مرحلة أخرى تتمثل فيها القوة، ثم جعل من بعد هذه القوة مرحلة أخرى أشد في الضعف، وهي مرحلة ضعف الكبر والشيخوخة والشيب والهرم، وفيها يصير الإنسان أشبه ما يكون بالطفل الصغير في كثير من أحواله، يخلق الله ما يشاء

من الضعف والقوة، وهو العليم بخلقه، القادر على كل شيء، الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

55- ويوم تقوم الساعة ويبعث الله الخلق من قبورهم للحساب والجزاء، يحلف المجرمون ما مكثوا في الدنيا غير فترة قصيرة من الزمن مقدار ساعة، ويقصدون بذلك عدم قيام الحجة عليهم، لعله ينفعهم العذر، كذبوا في قسّمهم كما كانوا يكذبون في الدنيا، ويُنكرون الحق الذي جاءت به رسلهم، كذلك كانوا يصرفون في الدنيا عن الحق.

56- وقال الذين أعطاهم الله العلم من الأنبياء والمؤمنين الصادقين في الرد على هؤلاء المجرمين: لقد مكثتم فيما كتبته الله في سابق علمه من يوم خلّقتكم إلى الوقت الذي حدده لبعثكم، فهذا يوم البعث الذي أنكرتموه في الدنيا تشاهدونه بأعينكم، ولكنكم كنتم لا تعلمون أن البعث حق وواقع فكذبتم به.

57- فيوم القيامة الذي يبعث الله فيه الخلائق من قبورهم ويقف الناس للحساب والجزاء لا ينفع الظالمين ما يقدمونه من الأعذار، ولا يؤذن لهم بإرضاء ربهم بالتوبة والعمل الصالح لفوات وقت ذلك، فقد حق عليهم العذاب بما عملوه في دنياهم.

58- ولقد بيّنا للناس في هذا القرآن العظيم من كل مثل حكيم، من شأنه أن يهدي القلوب إلى الحق، ويرشد النفوس إلى ما يسعدّها؛ من أجل إقامة الحجة عليهم، وليتضح لهم الهدى من الضلال، ولئن جنتهم -أيها الرسول- بحجة تدل على صدقك فيما تبلغه عن ربك، ليقولنّ الذين كفروا بك: ما أنتم -أيها الرسول وأتباعك- إلا متبعون للباطل فيما جنتم به.

59- كما ختم الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله بسبب أعمالهم، كذلك يختم الله على قلوب الذين لا يعلمون حقيقة ما تأتيهم به -أيها الرسول- من عند الله من هذه العبر والعظات، والآيات البينات، فلا يفقهون عن الله حُجة، ولا يفهمون عنه ما تتلوه عليهم من آيات كتابه.

60- إذا كان الأمر كما وصفنا لك من أحوال هؤلاء المشركين من قومك فاصبر -أيها الرسول- على أذاهم وتكذيبهم لك، إن ما وعدك الله به من العاقبة المحمودة من النصر والتمكين والثواب ثابت لا شك فيه، ولا يزعجك فيبعدنك عن دينك ويحملنك على عدم الصبر الذين لا يوقنون بالبعث ولا يصدّقون بالحساب والجزاء، ولا بما تدعوهم إليه من رشد وخير.

سورة لقمان

1- (الْم) الحروف المقطعة لا يعرف معناها إلا الله، نزلت لتحدي العرب أهل الفصاحة.

2- هذه الآيات المنزلة عليك -أيها الرسول- آيات الكتاب الذي ينطق بالصواب والحكمة البالغة، المحفوظ من التحريف والتبديل، الموصل إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

3- هذه الآيات هداية إلى الصراط المستقيم، ورحمة للذين أحسنوا العمل بما في القرآن، وما أمرهم به نبيهم محمد ﷺ في أقوالهم وفي أفعالهم، وفي كل أحوالهم.

4- الذين يؤدون الصلاة في أوقاتها المحددة لها بخشوع وإخلاص على أكمل وجه، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم

طيبة بها نفوسهم، وهم بما يكون في الآخرة من البعث والحساب والجزاء يوقنون إيقانًا قطعياً.

5- أولئك المتصفون بتلك الصفات السابقة على هداية عظيمة من ربهم توصلهم إلى المطلوب، وأولئك هم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة.

6- ومن الناس من يترك القول الذي ينفعه ويضع أمواله وينفقها في كل ما يُلهي عن طاعة الله ويصد عن مرضاته، ليصرف الناس عن طريق الهدى إلى طريق الهوى بغير علم ولا دليل، ويتخذ آيات الله سخرية واستهزاء، أولئك الذين يشتررون لهو الحديث ليصرفوا الناس عن دين الله وليستهزئوا بآياته لهم عذاب يُهينهم ويخزيهم يوم القيامة؛ بما ضلوا وأضلوا، واستهزءوا بآيات الله وكذبوا بالحق الواضح.

7- وإذا تتلى عليه آيات القرآن الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، وعلى صدق نبينا ﷺ ليؤمن بها وينقاد لها، أعرض عن طاعة ربه، مستكبراً عن سماع آياته سماع اعتبار وانتفاع، كأنه لم يسمع شيئاً، كأنَّ في أذنيه صمماً وثقلاً يحول بينه وبين السماع، ومن هذه حاله فبشِّر -أيها الرسول- هذا الشقي الذي اشترى لهو الحديث، وأعرض عن آياته بعذاب شديد الإيلام ينتظره يوم القيامة.

8- إن الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحة التي أمروا بها، أولئك لهم في الآخرة نعيم مقيم في الجنات يتنعمون فيها.

9- وحياتهم في تلك الجنات حياة باقية لا تنتهي، وعدهم الله بذلك وعداً حقاً لا شك فيه، ولا يُخلف الله وعداً وعده عباده

تفضلاً منه وكرماً، وهو العزيز في أمره، الحكيم في خلقه وتدبيره وشرعه.

10- خلق الله السماوات ورفعها بغير أعمدة تعتمد عليها كما تشاهدونها، ونصب في الأرض جباًلاً ثابتة حتى لا تضطرب فتتحرك بكم وأنتم عليها فتُفسد حياتكم، ونشر في الأرض الواسعة التي تعيشون فوقها من جميع أصناف الحيوان التي لا غنى لكم عنها، والتي فيها منفعتكم ومصلحتكم، وأنزل من السماء ماء كثيراً عذباً، فأنبت به من الأرض من كل زوج حسن المنظر نافع ينتفع به الناس والدواب.

11- وكل ما تشاهدونه مما ذكرناه لكم من خلق السماوات والأرض والجبال هو خلق الله، فأروني -أيها المشركون-: ماذا خلقت ألّهتكم التي تعبدونها من دون الله؟! إنهم لم يخلقوا شيئاً ما، بل هم مخلوقون لله، بل المشركون الظالمون في ضلال واضح عن الحق والاستقامة حيث يشركون مع خالقهم من لا ينفع ولا يضر ولا يخلق شيئاً وهم يُخلَقون.

12- ولقد أعطينا عبدنا الصالح لقمان العلم النافع والعمل به، وقلنا له: اشكر الله على ما أعطاك من النعم لكي يزيدك منها، ومن يشكر ربه على نعمه فإنما يعود نفع شكره إلى نفسه، فالله غني عن شكره وشكر غيره، ومن جحد نِعَمَ الله عليه فكفر به فإن كفره يعود عليه، لا يضر الله شيئاً فهو غني عن جميع مخلوقاته غير محتاج إليهم، له الحمد والثناء على كل حال، المحمود في الدنيا والآخرة.

13- واذكر -أيها الرسول- نصيحة لقمان لابنه حين قال له وهو يعظه، ويرشده إلى وجوه الخير بألفاظ عابرة: يا بني لا

تشرك بالله فتعبد معه غيره؛ إن الشرك لأعظم ظلم يقع الإنسان فيه وأقبحه؛ لأنه تسوية بين الخالق والمخلوق في العبادة.

14- وأمرنا الإنسان ببرّ والديه والإحسان إليهما وأن يطيع أمرهما في المعروف، فقد حمّله أمه في بطنها وعانت في حمله مشقة بعد مشقة؛ بسبب زيادة وزنه، وكبر حجمه، وحمله وفطامه عن الرضاعة في مدة عامين، وقلنا له: -أيها الإنسان- اشكر الله لما أنعم به عليك من نعم بأن تخلص له العبادة والطاعة، ثم اشكر لو الديك لما قاما به من رعايتك والإحسان إليك بأن تحسن إليهما، فإلّيّ وحدي مرجعكم، وسأحاسبكم على أعمالكم فأجازي كلاً بما يستحق.

15- وإنّ بذلّ الوالدان جهداً ليحملاك -أيها الابن- على أن تشرك بي غيري في عبادتك إياي تحكماً منهما مما ليس لك به علم، أو أمراك بمعصية فلا تطعهما في ذلك؛ ومع ذلك فصاحبهما في الأمور الدنيوية التي لا تتعلق بالدين مصاحبة كريمة حسنة، يرتضيها الشرع، وتقتضيها مكارم الأخلاق من البر والصلة والإحسان، واسلك -أيها العاقل- طريق الصالحين من عبادي ممن تاب ورجع إليّ ربه فوحده وأطاعه، ثم إليّ مرجعكم جميعاً الطائع والعاصي فأخبركم بما كنتم تعملونه في دنياكم، وأجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

16- يا بُنَيّ اعلم أن ما تفعله من السيئة أو الحسنة مهما كانت صغيرة مثل وزن حبة خردل أم كان هذا الشيء القليل مخبوءاً في باطن جبل لا يطلع عليها أحد، أم كانت في أي مكان في السماوات أو في الأرض مهما بعد، فإن الله يعلمه ويأتي بها يوم

القيامه ويحاسب العبدَ عليها، إن الله لطيف بعباده خبير بأعمالهم.

17- يا بُنَيَّ أقم الصلاة في أوقاتها كاملة تامة بخشوع وإخلاص، وأمر بكل ما حث الشرع على قوله أو فعله، وأنه عن كل ما نهى الشرع عن قوله أو فعله بحكمة وبقدر استطاعتك، واصبر على ما يصيبك من الأذى إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، واعلم أن قيامك بهذه الأمور مما أمر الله به وعزم عليك أن تفعله، فينبغي الحرص عليه.

18- ولا تتعالى على الناس فتعرض بوجهك عنهم إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم، بل كن ليناً متواضعاً، ولا تمش فوق الأرض بين الناس مشية المعجبين بأنفسهم، إن الله لا يحب كل متكبر على الناس في مشيته وهيئته وقوله، متفاخراً بماله أو جاهه وبما أوتي من نعم.

19- وكن معتدلاً في مشيتك فتوسط في المشي بين الإسراع والدبيب فلا تسرع ولا تبطئ، واخفض من صوتك فلا ترفعه رفعا يؤذي، إن أقبح الأصوات وأبغضها لصوت الحمير المعروفة بأصواتها المرتفعة القبيحة المنكرة.

20- ألم تروا -أيها الناس- أن الله ذلل لمنفعتكم ومصلحتكم ما في السماوات من الشمس والقمر والسحاب والكواكب والنجوم، وذلل لكم ما في الأرض من الدواب والشجر والماء والنبات وغير ذلك مما لا يحصى، وما دام الأمر كذلك فاشكروا الله على هذا التسخير، وأخلصوا له العبادة والطاعة، وعممكم ربكم بنعمه الظاهرة على الأبدان والجوارح كحسن الهيئة، وأنعمه الباطنة في العقول والقلوب كالعلم والحكمة، وما أدخره

لكم مما لا تعلمونه، ومع وجود هذه النعم فمن الناس قوم استولى عليهم الجهل والعناد؛ لأنهم يجادلون وينازعون في توحيد الله وفي وحيه، وفي تشريعاته بغير حجة ولا بيان، ولا مستند من وحي، أو عقل، ولا كتاب مبين منزل من الله يثبت حقيقة دعواه ويهديه إلى الحق، ويوضح له سبيل الرشاد، وينير عقله وقلبه.

21- وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل في توحيد الله:

اتبعوا ما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ من القرآن الكريم ومن الوحي فإنه الحق، قالوا: بل نتبع ما كان عليه آبائنا من عبادة آلهتنا، فيا عجباً لهم أيتبعون ما كان عليه آبائهم في الشرك ولو كان الشيطان هو الذي يدعوهم إلى ذلك ويزينه لهم، وينتهي بهم الأمر إلى عذاب السعير يوم القيامة؟!

22- ومن يُقبل على الله مذعناً لأمره مخلصاً له العبادة ومحسناً في أقواله وأفعاله، فقد أخذ بأوثق سبيل موصل إلى رضوان الله وجنته، وإلى الله وحده مصير كل الأمور ومرجعها للحساب والجزاء، فيحكم في عباده، ويجازيهم على أعمالهم التي عملوها في دنياهم، فليستعدوا لذلك الأمر.

23- ومن استمر -أيها الرسول- على كفره بعد أن بلغته دعوتنا فلا تحزن عليه؛ لأنك قمت بما أوجبه الله عليك من البلاغ والبيان، ثم إلينا مرجعهم يوم القيامة فنخبرهم بأعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا، ثم نجازيهم عليها بما يستحقونه من عقاب، إن الله عليم بما في صدورهم لا يخفى عليه شيء مما فيها.

24- نُمَتِّعهم بما نُعطيهم من الملذات والنعم في هذه الدنيا الفانية مدة قليلة إلى انقضاء آجالهم، ثم يوم القيامة نلجئهم

وندفعهم دفعًا إلى عذاب شديد، وهو عذاب جهنم لا يستطيعون الفكاك منه.

25- ولئن سألت -أيها الرسول- هؤلاء المشركين: مَنْ خلق السموات والأرض على هذا النظام البديع؟ ليقولنَّ خلقهن الله، فإذا قالوا ذلك فقل لهم: الحمد لله الذي أظهر الحجة عليكم من أنفسكم، بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون من يستحق الحمد لجهلهم، فلذلك أشركوا مع الله غيره في العبادة.

26- لله وحده كل ما في السموات والأرض خلقًا وملكا وتقديرًا وتصرفًا، فلا يستحق العبادة أحد غيره، إن الله هو الغني عن جميع مخلوقاته، له الحمد والثناء على كل حال، المحمود من أهل الأرض والسماء؛ لأنه هو الخالق لكل شيء، والرازق لكل شيء.

27- ولو أن أشجار الأرض كلها قُطعت وتحولت بغصونها وفروعها إلى أقلام، وجعل البحر حبرًا لها، ويُمَد هذا البحر بسبعة أبحر أخرى، وكُتِبَ بتلك الأقلام وذلك الحبر كلمات الله من علمه وحكمه وما أوحاه إلى ملائكته ورسله؛ لنفد ذلك المداد ولنقد ماء البحر، ولتكسرت تلك الأقلام، ولم تنفد كلمات الله لعدم تناهيها، فلا يحيط بها أحد من مخلوقاته، إن الله عزيز ينتقم ممن أشرك ومات على شركه، حكيم في خلقه وشرعه وتدبير أمور خلقه.

28- ما خَلَقَكُمْ -أيها الناس- ولا بَعَثَكُمْ يوم القيامة للحساب والجزاء إلا كَخَلَقَ نفس واحدة وبَعَثَهَا في السهولة واليسر؛ لأن قدرته يتساوى معها القليل والكثير، والصغير والكبير، إن الله سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم، لا يشغله خلق نفس أو بعثها عن

خلق نفس أخرى وبعثها، وسيجازيكم على ما عملتموه في دنياكم من خير أو شر.

29- ألم تر أن الله ينقص من ساعات الليل فيطول النهار ويقصر الليل، ويأخذ من ساعات النهار فيطول الليل ويقصر النهار، ودلّل لكم الشمس والقمر يجريان في مداره بنظام ثابت محكم إلى وقت محدد معلوم، لم يختل منذ خلقهما؛ ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم في دينهم ودنياهم ما به يعتبرون وينتفعون، وأن الله بما تعملون خبير لا يخفى عليه شيء من أعمالكم خيرها وشرها، وسيجازيكم عليها.

30- ذلك التدبير والتقدير الذي بُين لكم يشهدان بأن الله وحده هو الإله الحق في ذاته وصفاته وأفعاله لا إله سواه، وأن ما يعبد المشركون من الأصنام والأوثان ويدعونها من دون الله هو الباطل الذي لا أساس له؛ لأنه مخلوق زائل متغير، لا يضر ولا ينفع، وأن الله هو العلي بذاته وقدره وقهره فوق جميع مخلوقاته، الكبير الذي لا شيء أكبر منه، فهو وحده المستحق أن يُفرد بالعبادة دون من سواه.

31- ألم تر -أيها العاقل- أن السفن تجري في البحر بأمر الله وقدرته ولطفه وإحسانه وتسخيره نعمة منه على عباده؛ ليطلعكم -أيها الناس- على بعض آياته الدالة على قدرته ما بها تعتبرون؟ إن في جري السفن في البحر لدلالات على قدرته لكل صَبَّار على طاعة الله وعن محارمه وعما يُصيبه من ضراء، كثير الشكر لنعم الله عليه الدينية منها والدنيوية.

32- وإذا ركب المشركون السفن وعلّثهم أمواج كالجبال أو كالسحاب وأحاطت بهم من كل جانب وأوشكت تلك الأمواج أن

تغطيهم أصابهم الذعر الشديد من الغرق، ففرعوا إلى خالقهم وأخلصوا دعاءهم وعبادتهم له دون من سواه، فلما استجاب الله لهم ونجاهم إلى البر وسلمهم من الغرق؛ انقسموا إلى قسمين، فمنهم ظالمون لأنفسهم لم يقوموا بما يجب عليهم من شكر الله على وجه الكمال، ومنهم كافر بنعمة الله عليه جاحد لها، وما يكفر بآياتنا الدالة على كمال قدرتنا ووحدانيتنا ورحمتنا إلا كل ناقض للعهد، شديد النكران لنعم الله عليه، فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله عليهم؟!

33- يا أيها الناس اتقوا ربكم بأن تطيعوه ولا تعصوه، وبأن تشكروه ولا تكفروه، وخافوا عذاب يوم القيامة الذي لا يستطيع والد أن ينفع ولده بشيء من النفع في هذا اليوم، ولا يستطيع المولود أن يدفع عن والده شيئاً مما يحتاجه منه، إن وعد الله بالجزاء يوم القيامة حق لا ريب فيه وهو واقع لا محالة، وما دام الأمر كذلك فلا تتخذوا بالحياة الدنيا بزخارفها وشهواتها وملهياتها عن طاعة ربكم، وعن حسن الاستعداد لهذا اليوم الشديد، ولا يصرفنكم شياطين الجن والإنس عن طاعة الله، وعن امتثال أمره بتأخر العقاب عنكم وحلم الله عليكم، فإن الله يُمهّل ولا يُهمّل.

34- إن الله وحده يعلم مفاتيح الغيب فيعلم متى تقع الساعة، وهو الذي ينزل بقدرته المطر من السحاب متى شاء، لا يقدر على ذلك أحد غيره، ويعلم ما في أرحام الإناث أذكر هو أم أنثى، أشقي هو أم سعيد، وما تعلم نفس ما تكسبه في غدها من خير أو شر، ومن رزق قليل أو كثير، وما تعلم نفس بأيّ مكان ينتهي أجلها، بل الله وحده هو الذي يعلم ذلك كله، إن الله عليم

خبير بكل ذلك محيط بالظواهر والبواطن والخفايا والخبايا
والسرائر مما يجرى في نفوس عباده، لا يخفى عليه شيء.

سورة السجدة

1- (آلَمْ) الحروف المقطعة لا يعرف معناها إلا الله، نزلت
لتحدي العرب أهل الفصاحة.

2- هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ لا شك أنه منزل عليه
من عند رب العالمين، فليس بسحر ولا شعر ولا أساطير
الأولين.

3- بل أيقول هؤلاء المشركون: إن محمداً ﷺ اختلق القرآن
من عند نفسه؟ كذبوا، ليس الأمر كما قالوا، بل هذا القرآن هو
الحق الثابت المنزل عليك من ربك -أيها الرسول- لتتذرع به قومًا
لم يأتهم نذير من قبلك من هدايات وإرشادات وآداب، يخوفهم
من عذاب الله؛ لعلهم يهتدون من ضلالهم إلى الحق، فيعرفوه
ويؤمنوا به، ويعملوا بما فيه.

4- الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة
أيام لحكمة يعلمها، وهو قادر أن يخلقها في أقل من ذلك في
لمحة أو لحظة بأن يقول لها كن فتكون، ثم بعد خلقهما علا
وارتفع سبحانه وتعالى على عرشه علواً يليق بجلاله، ليس لكم
-أيها الناس- إذا تجاوزتم حدوده من وليّ يتولى أموركم
فينفحكم، أو شفيع يشفع لكم عند ربكم لكي يعفو عنكم لتنجوا من
عذابه، أفلا تتفكرون -أيها الناس- في عظمة الله وقدرته
وتسمعون هذه المواعظ البليغة، التي من شأنها أن تحملكم على
التذكر والاعتبار والطاعة التامة لله فتفردوه وحده بالعبادة
والطاعة؟

5- يُدبر الله سبحانه وتعالى أمر جميع المخلوقات في السماوات وفي الأرض إلى أن تقوم الساعة، فيدبر الأمر من السماء ثم ينزل الأمر إلى الأرض، ثم تصعد إليه تلك الأمور والشؤون المدبرة إلى السماء، في يوم عظيم، هو يوم القيامة كان مقداره ألف سنة من أيام الدنيا التي تعدونها.

6- ذلك الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة والمدبر لشؤون العالمين، هو العالم بكل ما يغييب عن الأبصار مما تُكُنّه الصدور وتخفيه النفوس، وعالم بما شاهده الأبصار، لا يخفى عليه شيء مما ظهر أو بطن، العزيز الذي لا يُعَالِبه أحد الذي ينتقم من أعدائه، الرحيم بعباده المؤمنين.

7- الله الذي أتقن وأحكم خلق كل شيء وأوجده في هذا الكون، وبدأ خَلْقَ أبيكم آدم عليه السلام أبا البشر من طين على غير مثال سابق، فصار على أحسن صورة، وأبدع شكل.

8- ثم جعل ذرية آدم من بعده تتناسل من نُطفة ضعيفة رقيقة مستقذرة تخرج من الرجل فتستقر في رحم المرأة.

9- ثم أتم الله خلق الإنسان سوياً، وأحسن خلقه في أحسن صورة، ونفخ فيه من روحه، بإرسال الملك الموكل بنفخ الروح لينفخ فيه الروح، وهو في رحم أمه، وجعل لكم -أيها الناس- نعمة السمع لتسمعوا بها وتُمَيِّزوا بها بين الأصوات، والأبصار لتبصروا بها وتُمَيِّزوا بها بين المرئيات، والأفئدة لتعقلوا بها وتُمَيِّزوا بها بين النافع والضار، قليلاً ما تشكرون ربكم الذي خلقكم وصوركم على نعمه التي أنعم بها عليكم.

10- وقال المشركون على سبيل الإنكار ليوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء: هل يعقل أننا إذا متنا وغُيِّبنا في الأرض

أن تُبعث أحياء مرة أخرى فنكون خلقًا جديدًا؟! بل هم في واقع أمرهم كافرون بالبعث، وبلقاء ربهم يوم القيامة، الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم.

11- قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: سيتولى قبض أرواحكم عند انتهاء آجالكم ملك الموت الذي كلفه الله بذلك، ولن تتأخروا لحظة واحدة، ثم إلينا وحدنا يوم القيامة تُرجعون للحساب والجزاء، فَنَجَازِيكُمْ بما تستحقونه من عقاب؛ بسبب كفركم وجحودكم.

12- ولو ترى -أيها الرسول- يوم القيامة حال المجرمين الذين أصروا على الذنوب العظيمة لرأيت أمرًا عظيمًا، وخطبًا جسيمًا، تراهم وقد خفضوا رؤوسهم أذلاء عند ربهم من الخزي؛ مقرين بجرمهم، سائلين ربهم الرجعة إلى الدنيا قائلين: ربنا أبصرنا ما كنَّا نُكذِّبُ به من البعث والحساب، والجزاء حقًا، وسمعنا منك تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدنيا، وقد تُبْنَا إِلَيْكَ فارجعنا إلى الحياة الدنيا نعمل عملاً صالحًا ترضى به عَنَّا، إنا قد أيقنَّا الآن بصدق ما جاءت به رسلك من وحدانيتك وأَنَّكَ تبعث من في القبور.

13- ولو شِئْنَا أن نُعْطِي كل نفس من النفوس رُشدها وتوفيقها للطاعة في الدنيا لحملناها على ذلك؛ لأن قدرتنا لا يعجزها شيء، ولكن وجب القول مني حكمة وعدلاً: لأملأَنَّ جهنم يوم القيامة من أهل الكفر والمعاصي من الجن والإنس أجمعين؛ وذلك لتكذيبهم لرسلنا واختيارهم الضلالة على الهدى والكفر على الإيمان.

14- ويقال لهؤلاء المشركين يوم القيامة عند دخولهم النار على سبيل التوبيخ والتبكي: فذوقوا العذاب بسبب نسيانكم وجودكم وغفلتكم في الحياة الدنيا عن العمل للقاء الله وما فيه من حساب وجزاء، إِنَّا نترككم اليوم في العذاب غير مبالين بما تقاسونه منه؛ بسبب إصراركم على كفركم، وذوقوا عذاب جهنم الدائم الذي لا ينقطع بما كنتم تعملون في الدنيا من الكفر والفسوق والمعاصي.

15- إِنما يؤمن بآياتنا الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا، المنزلة على رسولنا، ويعمل بها أصحاب النفوس النقية الصافية، الذين إذا وُعطوا بها أو ثُلِّيت عليهم سجدوا لله خاشعين مُطِيعِينَ، مُسَبِّحِينَ بحمده في سجودهم، وهم لا يستكبرون عن عبادة ربهم والانتقاد لأمره ونهيهِ، ولا عن السجود له.

16- هؤلاء المؤمنون الصادقون الذين يُؤمنون بآيات الله يقومون بالليل ويتركون فراش النوم ويبتعدون عنه، ويتوجهون لربهم يتهجّدون بالصلاة، يدعونه خوفاً من العذاب وطمعاً في الثواب، ومما رزقناهم من الخيرات قليلاً كان أو كثيراً يُنفقون في سبيل الله في وجوه البر والخير.

17- فلا تعلم نفس ما أعده الله وأخفاه لهؤلاء المؤمنين المتجهدين بالليل والناس نيام، من الثواب والنعيم مما لم يطلع عليه أحد لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فلم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر، نعيم تُقرُّ به أعينهم، وتنشرح له صدورهم؛ جزاء من الله لهم على أعمالهم الصالحة التي كانوا يعملونها في الدنيا.

18- هل يستوي من كان مؤمناً بالله ورسوله، مطيعاً لهما، مع من كفر بالله ورسله، وخرج عن طاعة ربه؟ لا يستوون عند الله في الجزاء الدنيوي أو الآخروي.

19- أما الذين آمنوا بالله وعملوا بما أمروا به من الأعمال الصالحات من فروض ونوافل، فجزاؤهم المعد لهم في الآخرة جنات يأوون إليها ويستقرون فيها، جزاء لهم بسبب ما كانوا يعملون في الدنيا من الأعمال الصالحة.

20- وأما الذين خرجوا عن طاعة ربهم بالكفر والفسق وعمل المعاصي فمستقرهم جهنم لا يخرجون منها أبداً، كلما أرادوا أن يخرجوا منها هرباً من لهيبها وسعيرها وعذابها أعيدها فيها، وقيل لهم توبيخاً وتبكيتاً وزيادة للحسرة في قلوبهم: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون في الدنيا حين كانت رسلنا تنذركم به وتحذركم منه.

21- ولنذيقن هؤلاء الفاسقين المكذبين من العذاب الأدنى من البلاء والمصائب المتنوعة في الدنيا، قبل العذاب الأكبر المعد لهم في الآخرة، لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم.

22- ولا أحد أشد ظلمًا لنفسه ممن ذكره المذكر بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته، وعلى أن دين الإسلام هو الحق، فلم يتعظ بها ويتذكر، بل أعرض عنها غير مبال بها، إنّا من هؤلاء المجرمين الذين أعرضوا عن آيات الله وحججه ولم ينتفعوا بها منتقمون عاجلاً أو آجلاً انتقاماً يذلهم ويهينهم.

23- ولقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك -أيها الرسول- القرآن، فلا تكن في شك من لقائك موسى ليلة الإسراء والمعراج، وجعلنا التوراة المنزلّة على موسى هداية لبني

إسرائيل ليخرجوا بهديها من الضلال إلى طريق الحق والسادق والاستقامة.

24- وجعلنا من بني إسرائيل أئمة هداية ودعاةً إلى الخير يهدون غيرهم إلى الطريق الحق حيث يقتدي الناس بهم في الخير، ويدعونهم إلى عبادة الله وحده وطاعته، وإنما صاروا أئمة هداية حين صبروا على ما كلفناهم به من عبادات بامتنال أوامرنا واجتناب نواهينا، وتحمل الأذى في الدعوة إلى ديننا، وكانوا بآياتنا المنزلة على رسلنا موقنين بها يقينًا جازمًا لا شك فيه بأنهم على الحق وبأنهم متبعون للشرعة التي لا يضل من اتبعها وسار على نهجها.

25- إن ربك -أيها الرسول- هو وحده الذي يقضي بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة بالعدل فيما اختلفوا فيه في الدنيا من أمور متنوعة على رأسها ما يتعلق بأمر الدين، فيبين المحق والمبطل، ويجازي كلًا بما يستحقه.

26- أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول أننا قد أهلكنا كثيرًا من قبلهم من الأمم السابقة التي كذبت رسل ربها وآثروا الكفر على الإيمان؟! وإن قومك المشركين يمشون في مساكن هؤلاء المكذبين التي كانوا يسكنونها قبل إهلاكهم، أفلم يتعظوا بحالهم وما حدث لهم؟! إن في إهلاك السابقين بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسولهم لعظات، تخوف المشركين من قومك عاقبة كفرهم وتكذيبهم، أفلا يسمع هؤلاء المكذبون هذه المواعظ والعبر فينزعجوا ويرجعوا عن كفرهم وتكذيبهم لك قبل أن يحل بهم ما حل بهؤلاء المكذبين قبلهم؟!!

27- أولم يشاهد هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت أننا نرسل بقدرتنا ورحمتنا ماء المطر إلى الأرض اليابسة الخالية من النبات، فينزل عليها، فنخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه تأكل منه دوابهم ما يناسبها، ويأكلون هم منه ما يناسبهم ويتقوتون به؟! أفلا يُبْصِرُونَ تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيدركون أن من أنبت الأرض الميتة قادر على إحياء الأموات من قبورهم للحساب والجزاء؟!

28- ويقول المكذبون بالبعث للنبي ﷺ ولأصحابه على سبيل الاستهزاء، واستعجال العقاب: متى هذا الذي تحدثونا عنه من أن الله سيقضى بيننا وبينكم ويجعل لكم النصر ولنا الهزيمة؟ ومتى يوم القيامة وأنا سنعذب بالنار، وأنكم ستفوزون بجنة ربكم؟ لقد طال انتظارنا لهذا اليوم فإن كنتم صادقين في قولكم فادعوا ربكم أن يعجل بهذا اليوم.

29- قل -أيها الرسول- لهؤلاء الجاهلين المغرورين: هذا الوعد الذي يحصل به عقابكم هو في الآخرة، إنه يوم الفصل بين العباد حين لا ينفع الكفار إيمانهم بعد معاينة يوم القيامة، ولا هم يؤخرون للتوبة إلى ربهم من كفرهم ومعاصيهم، بل سينزل بكم العذاب سريعًا وبدون مهلة.

30- فأعرض -أيها الرسول- عن هؤلاء المشركين بعد تماديهم في ضلالهم، ولا تبال بتكذيبهم، وامض في طريقك أنت وأتباعك، وانتظر النصر عليهم وما يحل بهم من الدُّلِّ والمهانة، إنهم منتظرون ومتربصون بكم دوائر السوء، فسيذلهم الله ويُهينهم، وينصرك عليهم نصرًا مؤزرًا.

سورة الأحزاب

1- يا أيها النبي اثبت على تقوى الله بالعمل بأوامره واجتنب محارمه والخوف من عقابه، وليقتد بك المؤمنون في ملازمة تقوى الله، ولا تطع الكافرين الذين جحدوا نعم الله عليهم، وعبدوا معه آلهة أخرى، واجتنب كذلك طاعة المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر، إن الله كان عليماً بما يكيد الكفار والمنافقون وبكل شيء، حكيمًا في خلقه وأمره وتدبيره.

2- واتبع ما يوحيه إليك ربك من القرآن والسنة اتباعًا تامًا، إن الله كان بما تعملون خبيرًا بحركات النفوس وبخفايا القلوب لا يفوته من ذلك شيء، وسيجازيكم على أعمالكم بما تستحقونه.

3- وثق بالله، وفوّض جميع أمورك إليه وحده، وكفى به سبحانه وتعالى حافظًا لمن توكل عليه من عباده وأناب إليه، وكفيلاً بتدبير أمره.

4- لم يجعل الله لأحد من الرجال من قلوبين في صدره، كذلك لم يجعل زوجاتكم اللاتي تظاهرون منهن في الحرمة بمنزلة أمهاتكم في التحريم، فلم يجعل المرأة الواحدة زوجًا للرجل وأماً له في وقت واحد، وما جعل الله الأولاد بالتبني في الشرع بمنزلة الأبناء من الصلب، فلم يجعل المرء دعيًا لرجل وابنًا له في زمن واحد، بل الظهار والتبني من العادات الجاهلية التي أبطلها الإسلام، فلا تكون الزوجة المظاهر منها كالأم في الحرمة، ولا يثبت النسب بالتبني من قول شخص: هذا ابني، ذلكم الذي تزعمونه من تشبيه الزوجة بالأم في التحريم، ومن نسبة الأبناء إلى غير آبائهم الشرعيين، هو قول تردّدونه بأفواهكم لا يُعندُّ به فلا يؤيده الواقع، ولا يسانده الحق، والله سبحانه وتعالى يقول الحق ويبين لعباده سبيله، ويرشدهم إلى طريق الرشاد الذي

يوصل إلى الخير والصالح ليعملوا به، وما دام الأمر كذلك فاتركوا عاداتكم وتقاليدكم التي ألغتموها عن آبائكم، واتبعوا ما يأمركم به ربكم.

5- انسبوا من تزعمون أنهم أبناؤكم لأبائهم الحقيقيين، فنسبتهم إليهم هو العدل والأقوم عند الله وأشرف للأباء والأبناء، فإن لم تعلموا آباءهم الحقيقيين لتنسبوهم إليهم فإنهم إخوانكم في الدين والعقيدة وهم مواليككم، فخاطبوهم ونادوهم بيا أخي ويا ابن عمي أو يا مولاي، واتركوا نسبتهن إلى غير آبائهم الشرعيين، ومع كل ذلك فمن رحمتنا بكم أننا لم نجعل عليكم إثم فيما وقعتم فيه من خطأ غير مقصود ما لم تتعمدوه، وإنما يؤاخذكم الله إذا تعمدتم فعل الخطأ أو النطق به، وكان الله غفوراً لمن أخطأ فتاب، رحيماً بهم حيث لم يؤاخذهم بالخطأ.

6- النبي محمد ﷺ أرحم بالمسلمين من أنفسهم، وطاعته أولى من طاعتهم لأنفسهم، فإذا ما دعاهم إلى أمر، ودعتهم أنفسهم إلى خلافه، وجب أن يؤثروا ما دعاهم إليه، على ما تدعوهم إليه أنفسهم؛ لأنه ﷺ لا يدعوهم إلا إلى ما ينفعهم، وزوجاته بمنزلة أمهاتهم في الاحترام والإكرام وفي حرمة الزواج منهن، فيحرم على أي مؤمن أن يتزوج بإحداهن بعد موت النبي ﷺ كما يحرم عليه الزواج بأمه، وأصحاب القرابة من المسلمين بعضهم أحق بميراث بعض في حكم الله وشرعه، لكن إذا أردتم -أيها المسلمون- أن تقدموا إلى غير أقاربكم من المؤمنين من غير الورثة معروفاً من الوصية لهم بعد موتكم ببعض المال، والصلة والبر والإحسان إليهم في حياتكم فلا

خرج عليكم في ذلك، كان ذلك الحكم المذكور مكتوباً في اللوح المحفوظ، فيجب عليكم العمل به.

7- واذكر -أيها الرسول- حين أخذنا من النبيين عهداً مؤكداً، وأخذنا على وجه الخصوص العهد المؤكد منك، ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وأخذنا منهم عهداً مؤكداً على الوفاء بما ائتمنوا عليه بأن يعبدوا الله وحده ويدعوا إلى عبادته وأداء الأمانة بتبليغ رسالته، وأن يُصَدِّق بعضهم بعضاً في أصول الشرائع ومكارم الأخلاق.

8- أخذ الله ذلك العهد المؤكد من أولئك الأنبياء؛ ليسأل المرسلين هل بلغوا أمهم دعوة الله، وماذا أجابتهم أمهم، فيجزى الله المؤمنين الجنة؛ بسبب صدقهم في تبليغ رسالته، وأعد للكافرين الذين أعرضوا عن دعوة أنبيائهم يوم القيامة عذاباً شديداً الإيلام في جهنم؛ بسبب هذا الإعراض.

9- يا من آمنتم بالله وصدقتم برسوله وعلمتم بشرعه، اذكروا على سبيل الشكر والاعتبار نعمة الله التي أنعم بها عليكم في المدينة وقت غزوة الأحزاب حين جاء المشركون متحزبين من معظم القبائل لقتالكم وساندهم اليهود والمنافقون من داخل المدينة، فأرسلنا على هؤلاء الأحزاب ريحاً شديدة زلزلتهم فاقتلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقذفت في قلوبهم الرعب، وأرسلنا عليهم من عندنا ملائكة من السماء لم تروها ليعاونوكم، فوقع الرعب في قلوبهم وولى الكفار مدبرين عنكم خائفين فرعين، لا يقدرّون على فعل شيء، وكان الله بما تعملون بصيراً، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

10- واذكروا حين جاءكم الكفار من فوقكم من أعلى الوادي من جهة المشرق، ومن أسفل منكم من بطن الوادي من جهة المغرب، وتعاهدوا على استئصال الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم، وذلك في وقعة الخندق حينها شخصت الأبصار من شدة الخوف والخيرة والدهشة عن كل شيء إلا عن النظر إلى عدوها، ووصلت القلوب الحناجر من شدة الرعب لما أصاب المسلمين من بلاء بسبب إحاطة جيوش الأحزاب بهم، وغلب اليأس على المنافقين، وكثرت الأقاويل، وتظنون بالله الظنون المختلفة، فمنكم من كان يظهر أمامكم الإيمان والإسلام، ويخفي الكفر والعصيان، وهم المنافقون وهؤلاء ظنوا الظنون السيئة، بأن الله لا ينصر دينه ولا يعلي كلمته، وظن المؤمنون أن النصر على الأحزاب لهم، ومنكم من كان أقل من ذلك في ثباته ويقينه.

11- في ذلك الموقف العصيب وفي ذلك المكان الذي أحاط به الأحزاب من كل جانب في غزوة الخندق اختبر إيمان المؤمنين بما لاقوه من اجتماع أعدائهم عليهم ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه، وعُرف المؤمن من المنافق، واضطرب المؤمنون اضطراباً شديداً من شدة الخوف والقلق؛ لأن الأعداء حاصروهم، ولأن بنى قريظة نقضوا عهودهم.

12- يومئذ قال المنافقون والذين في قلوبهم شك وهم ضعفاء الإيمان لكم وأنتم في أشد ساعات الحرج والضيق: ما وعدنا الله ورسوله من النصر على عدونا والتمكين لنا في الأرض إلا باطلاً من القول لا يطابق الواقع الذي نعيش فيه، وخداعاً لا أساس له فلا تصدقوه.

13- واذكر -أيها الرسول- حين قالت طائفة من المنافقين مناديين المؤمنين من أهل المدينة بعد ما قلَّ صبرهم: يا أهل يثرب -وهو اسم المدينة القديم قبل الإسلام- لا إقامة لكم في معركة خاسرة فارجعوا إلى منازلكم داخل المدينة واستسلموا لأعدائكم فهو خير لكم، فكانوا يحرضون غيرهم على ترك مكانه في الجهاد، ولا يكتفون بذلك، بل كان يستأذن فريق من المنافقين الرسولَ بالانصراف إلى بيوتهم يدَّعون أنها خالية ممن يحرسها، وأنها مكشوفة للعدو فيخشون عليها، والحق أنها ليست كما زعموا أنها مكشوفة، وما قصدوا بذلك الاعتذار الكاذب إلا الفرار من القتال أمام العدو؛ لضعف إيمانهم، وجبن نفوسهم.

14- ولو دخل جيش الأحزاب عليهم المدينة من جميع جوانبها، ثم سئل هؤلاء المنافقون الشرك بالله والرجوع عن الإسلام وأن ينضموا إليهم في مقاتلة المسلمين، لأجابوا الكفار إلى ذلك مبادرين، وما تأخروا عن الردة والعودة إلى الشرك إلا قليل منهم.

15- ولقد كان هؤلاء المنافقون عاهدوا الله أمام رسوله ﷺ بعد فرارهم يوم أحد من القتال؛ لئن أشهدهم الله قتلاً آخر لا يتأخرون إذا دُعوا إلى الجهاد، ولا يفرُّون إن حضروا القتال، ولكنهم خانوا عهدهم ونقضوه، وسيسألهم الله عن ذلك العهد، وسيحاسبهم على نقضه، وقضى الله أن العباد مسؤولون ومحاسبون عما عاهدوا الله عليه، وسيجازي كل ناقض لعهده بما يستحقه من عقاب.

16- قل -أيها الرسول- لهؤلاء المنافقين: لن ينفعكم الفرار من المعركة إن فررتم خوفاً من الموت أو القتل، فإن ذلك لا يؤخر آجالكم المقدرة لكم؛ لأن كل إنسان لا بد له من نهاية تنتهي عندها حياته، سواء أكانت تلك النهاية عن طريق القتل أم عن طريق الموت على الفراش، وإن فررتم ولم تحن آجالكم فلن تتمتعوا في هذه الدنيا إلا زمناً قليلاً بقدر أعماركم المحددة لكم، ثم ينزل بكم قضاء الله الذي لا مرد لكم منه.

17- قل -أيها الرسول- لهؤلاء الجاهلين: من ذا الذي يمنعكم من قدر الله أو يجبركم من عذابه إن أراد بكم سوءاً من الموت أو القتل، أو أراد بكم ما ترجونه من السلامة والخير، لا أحد يمنعكم من ذلك فهو المعطي المانع، الضار النافع يفعل ما يشاء، ولا يجد هؤلاء المنافقون لهم من دون الله ولياً يتولاهم فيجلب لهم النفع، ولا نصيراً ينصرهم فيمنع عنهم عقابه، فَلْيَمْتَنِلُوا طاعة المنفرد بالأمور كلها.

18- إن الله لا يخفى عليه حال أولئك المنافقين فيعلم المثبطين منكم لغيرهم عن الجهاد في سبيل الله في حرب جيوش الأحزاب مع رسول الله ﷺ، والقائلين لإخوانهم: تعالوا وانضموا إلينا ولا تنضموا إلى صفوف المسلمين واتركوا محمداً حتى لا تقتلوا، فإننا نخاف عليكم الهلاك في قتاله مع الناس، وهم مع تخذيلهم هذا لا يأتون القتال ولا يشاركون فيه إلا نادراً؛ رياء وسمعة وخوف الفضيحة والطمع في الغنيمة لا لينصروا الله ورسوله والمؤمنين.

19- من صفات هؤلاء المنافقين أنهم أبخل الناس عليكم -أيها المؤمنون- بالمال فلا يعينونكم ببذله، وأبخلهم بالنفس فلا

يقاتلون معكم في الدفاع عن الحق والعرض والشرف ولا في أي شيء فيه منفعة لكم حباً في الحياة وكرهًا للموت، وأبخلهم بالجهد والمودة فلا يوادُّونكم لما في نفوسهم من العداوة والحق، فإذا حضروا القتال ولاقوا العدو أصابهم الهلع ورأيتم ينظرون إليك -أيها الرسول- تدور أعينهم من شدة الخوف من القتل مثل دوران عيني من يعاني سكرات الموت، فإذا انتهت الحرب وذهب الرعب وحل الأمان رموكم بأسوأ الكلام بالسنة سليطة مؤذية، وتراهم عند قسمة الغنائم يبحثون عنها، ليس فيهم خير، أولئك المنافقون المتصفون بهذه الصفات لم يؤمنوا بقلوبهم إيمانًا صادقًا، بل قالوا بالسنتهم قولًا تكذبه قلوبهم وأفعالهم، فأذهب الله ثواب أعمالهم، وكان ذلك الإحباط على الله هينًا سهلًا.

20- يظن هؤلاء المنافقون الجبناء أن الأحزاب الذين هزمهم الله شر هزيمة لم يذهبوا حتى يستأصلوا المؤمنين؛ وذلك من قلة يقينهم وشدة خوفهم وجبنهم، ولو قُدِّر وعاد الأحزاب إلى المدينة مرة أخرى لتمنَّى أولئك المنافقون أنهم خارجون عنها بين أهل البوادي من الأعراب حتى لا يعرضوا أنفسهم للقتال، يسألون القادمين من المدينة، والذاهبين إليها عن أخباركم -أيها المؤمنون- ماذا حدث لكم بعد قتال عدوكم لكم، حتى لكانهم غير ساكنين فيها، ولو كانوا فيكم -أيها المؤمنون- عندما يعود الكافرون إلى المدينة ما قاتلوا معكم إلا قليلًا؛ لكثرة جبنهم وضعف يقينهم، فلا تبالوا بهم ولا تأسوا عليهم، فهم لا يقاتلون عن رغبة، وإنما يقاتلون رياء ومخادعة.

21- لقد كان لكم -أيها المؤمنون- في أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله قدوة حسنة تقتدون به، حيث بذل نفسه لنصرة دين الله، فالزموا سنته، فإنما يسلكها ويتأسى بها مَنْ كان يرجو ثواب الله ويؤمل رحمته ويعمل لها، وذكر الله ذكرًا كثيرًا في كل حال؛ لأن الملازمة لذكر الله توصل إلى طاعته والخوف منه.

22- ولمّا شاهد المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب المجتمعة الذين تحزّبوا حول المدينة وأحاطوا بها لقتالهم، لم يهنوا ولم يجزعوا، بل ثبتوا على إيمانهم وثّيقنوا أن موعد النصر قد قرب، وقالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والمحنة وبعدها النصر، وهذا الضيق سيعقبه الفرج، وهذا العسر سيأتي بعده اليسر، وصدق الله ورسوله ﷺ في هذا الوعد؛ لقد تحقق فأنجز الله وعده، وصدق رسوله ﷺ فيما بشرّ به، وما زادهم ما شاهدوه من جيوش الأحزاب إلا إيمانًا بقدرة الله وانقيادًا لأمره وتسليمًا لقضائه وأملًا في نصره وتأيبه.

23- من المؤمنين رجال كثيرون وقّوا بعهودهم مع الله بما عاهدوا عليه من الثبات معه في كل موطن، والصبر عند البأساء والضراء، فمنهم من وقّى بوعده حتى أدركه أجله، فاستشهد في سبيل الله، أو مات على الصدق والوفاء، ومنهم مَنْ ينتظر إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة في سبيله في الوقت الذي يريد ربه ويختاره، وما غيّر هؤلاء المؤمنون ما عاهدوا الله عليه حتى آخر لحظة من لحظات حياتهم، ولا نقضوه كما بدل غيرهم من أهل النفاق.

24- وإنما قدرنا ما قدرنا من الفتن والابتلاء ليتبين الصادق من الكاذب، فيعطي الصادقين أحسن الجزاء الذي يستحقونه بصدقهم في أقوالهم، وأحوالهم، واستواء ظاهريهم وباطنهم وبما وفوا بعهودهم التي عاهدوا الله عليها وحسن بلائهم، ويعذب المنافقين الناقضين لعهودهم إن شاء تعذيبهم؛ بأن لا يوفقهم للتوبة من نفاقهم قبل موتهم، فيموتوا على الكفر فيخلدوا في النار، أو يتوب عليهم بأن يوفقهم للتوبة، إن الله كان غفوراً لذنوب من تاب من ذنوبه، رحيمًا به حيث وفقه للتوبة النصوح، وقبلها منه، وستر عليه ما اجترحه من ذنوب.

25- وردَّ الله بفضلَه وقدرته أحزاب الكفر من قريش وغطفان وغيرهم ممن كانوا معهم عن المدينة خائبين خاسرين مغتاضين إذ لم يظفروا بما أرادوا من استئصال المؤمنين والقضاء عليهم، وكفى الله المؤمنين القتال بما أيدهم به من إرسال الريح الشديدة وإنزال الملائكة من عنده، وكان الله قويًا لا يغالبه أحد إلا غلب، ولا يستنصره أحد إلا غلب، عزيزًا في ملكه وسلطانه.

26- وأنزل الله الذين أعانوا الأحزاب في قتال المسلمين من يهود بني قريظة من حصونهم التي كانوا يتحصنون فيها ومكنكم من رقابهم، وألقى في قلوبهم الرعب، تقتلون -أيها المؤمنون- منهم فريقًا من الرجال المقاتلين، وتأسرون فريقًا آخر من النساء والصبيان.

27- وملأكم الله -أيها المؤمنون- بعد هلاكهم أرضهم بما فيها من نخيل وزروع، وملأكم مساكنهم، وأموالهم المنقولة كالحلي والسلاح والمواشي، وغير المنقولة كالحصون المنيعة،

وملككم أرض خيبر التي لم تتمكنوا من وطئها من قبل لمنعتها وعزتها عند أهلها لكنكم ستملكونها، وكان الله على كل شيء قديرًا، لا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه قد قدر لكم ما قدر حيث مكنكم الله وخذلهم فقتلتموهم، وأسرتموهم، وغنمتم أموالهم وديارهم وأرضهم.

28- يا أيها النبي قل لأزواجك اللاتي اجتمعن عليك يطلبن منك التوسعة في النفقة ولم يكن عندك ما توسع به عليهن: إن كنتن تُردن سعة الحياة الدنيا وبهجتها ومتعها من مأكَل وملبس، فوق ما أنتن فيه عندي من معيشة مقصورة على ضروريات الحياة ولا تستطعن الصبر على المعيشة معي، فأقبلن أمتعنن شيئاً مما عندي من الدنيا بما تتمتع به المطلقات، وأفارقن فراقاً لا ضرر فيه أو إيذاء ولا ظلم معه؛ لأنني سأعطيكن ما هو فوق حقكن.

29- وإن كنتن تُردن رضا الله ورضا رسوله ﷺ وما أعدَّ الله لكنن في الدار الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم، فاصبرن على حالكن، واخترن الآخرة على الدنيا وأطعن الله ورسوله، فإن الله أعد للمحسنات منكن ممن صبرت مع رسول الله ﷺ وأحسنن العشرة ثواباً عظيماً لا يعلم مقداره إلا الله.

30- يا نساء النبي من يأت منكن بمعصية ظاهرة القبح يُضاعف لها العقاب يوم القيامة ضعفين، لمكانتها ومنزلتها العالية بين المؤمنين وصيانة لجنان النبي ﷺ، وكان ذلك العقاب المضاعف على الله سهلاً؛ لأنه لا يصعب عليه شيء.